المحاضرة الرابعة

المبادئ والأسس التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية

01- الشورى والبيعة في الإسلام:

يعتمد منهج الإسلام في الحكم على الشورى بين المسلمين لاختار الرئيس أو الأمير (أمير المؤمنين) أو الحاكم، والشورى هي تشاور جماعة المسلمين لاختيار الشخص الذي يتولى أمورهم ثم يبايعونه على السمع والطاعة، والشورى هي ديمقراطية الإسلام الحقيقية وهي ألفة للجماعة وسبار للعقول فما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم، فقد أقر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مبدأ الحكم في الإسلام على أساس الشورى، قال تعالى: "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم" الشورى 38، وقال أيضا " وشاورهم في الأمر" آل عمران 159، فهي عبارة عن عقد بين المسلمين وحاكمهم الجديد، وأقر الرسول صل الله عليه وسلم الشورى في كل أمور الحكم وليس في اختيار الحاكم فقط، حيث كان يستشير أصحابه في العديد من الأمور المتعلقة بشأن الدولة والأمور الاجتماعية كحادثة الإفك التي شاور فيها عليا وأسامة، ومنه فقد سن الرسول قبل موته نظام الشورى للمسلمين في كل شؤون الدنيا التي لم يرد فيها نص قرآني، والشورى في الحكم عقد مشروط بعدة شروط (عقد الإمامة) يجب أن يلتزم بها الحاكم وهي:

- إقامة الدين.
- تحقيق العدل.
- نشر الأمن وتحصين البلاد.
- حفظ النفس التي حرم الله إلا بالحق.
- عدم أخذ المال بالباطل.
- الرجوع إلى أهل الشورى فيما لم يقع به القرآن والسنة بحكم (رأي).

فقد أقرت الشريعة الإسلامية مبدأ تقييد سلطة الحاكم حتى لا يتجبر ويطغى على الرعية، وإذا زاغ عن هذه القواعد يجوز لهم محاسبته عن

الإخلال بعقد الإسلام، لكن منهاج الشورى والبيعة لم يستمر طويلا، حيث مع وصول معاوية بن أبي سفيان حوله إلى ميراث عائلي (بداية عهد الدولة الأموية)، حين عهد بالحكم لابنه يزيد بن معاوية، وتوالت بعدها عمليات توريث الحكم من جيل إلى آخر.

02- **الجهاد في الإسلام:**

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، ولا يقصد به في اللغة القتال فقط كما يعتقد البعض، بل هو قبل ذلك جهاد النفس، غير أننا في هذا الصدد سنركز على الجهاد أو القتال في سبيل الله، وهو فرض كفاية إذا أداه بعض المسلمين سقط على غيرهم، ويكون فرض عين حين يستنفر حاكم المسلمين الناس، ويكون ذلك عند دخول العدو إلى بلاد المسلمين من أجل العدوان، أو عند تهديم المساجد التي يصلي فيها المسلمون ومنعوا من الصلاة فيها، ويكون الجهاد بإعداد واستخدام القوة المادية لمقاومة أعداء الله ضمن قواعد السياسة الخارجية الإسلامية، القائمة على حماية دولة الإسلام والمسلمين ونشر رسالة الإسلام وإعلاء كلمة الحق، ويكون الجهاد بعد استنفاذ طرق الرفق واللين في الدعوة أو التعرض للخطر المداهم أو العدو المتربص. وحتى الغزو في الإسلام كان حضاريا وبعيدا عن العنف والانتقام فمن وصايا الرسول صل الله عليه وسلم أنه قال: "أغزوا باسم الله، ثم في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: أدعهم إلى الإسلام ..."

03- **الجزية في الإسلام:**

الجزية في اللغة تعني خراج الأرض، وهي مقدار قليل من المال يأخذه الإسلام (الحاكم في الدولة الإسلامية لبيت المال) من أهل الديانات الأخرى التي تخضع للدولة الإسلامية أو تقع في الإقليم الجغرافي الخاضع لسلطة الدولة الإسلامية، ويصفها الجوهري بأنها: "ما يؤخذ من أهل الذمة، وهي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذمة وهي فعلة من الجزاء، وكأنها جزت عن قتله". وهو قدر قليل من المال لا يذكر مقارنة بالزكاة التي

يأخذونها من المسلمين، ولا تؤخذ هذه الجزية كعقوبة لهم بل تأخذ نظير ما يتمتعون به تحت لواء الدولة الإسلامية من المصالح العامة والخاصة، ومقدارها دينار عن كل ذكر حر بالغ ولم تزد عن ذلك، فلا تأخذ عن الأنثى أو الصبي أو العبيد، وفرضت مع حكم عمر بن الخطاب، وتتضح هنا عظمة هذا الدين الذي يمنح الحرية في العقيدة للبشر ، فلهم حرية الديانة في أراضي الدولة الإسلامية ولهم كل الحقوق والواجبات مثلهم مثل المسلمين، وتضمن لهم الدولة الأمن والحماية والكرامة والتملك والعيش في سلام، وهو ما لا نجده في حكم دول أخرى حيث يتعرض فيها المسلمون الى التعذيب والبطش والتقتيل، سواء في عهد الرسول صل الله عليه وسلم (مكة) أو بعد دولة الرسول (الأندلس بعد سقوطها أو العراق بعد دخول التتار)

04- خصائص الحضارة العربية الإسلامية:

الحضارة العربية الإسلامية حضارة متميزة بمقوماتها وبخصائصها، فهي ليست حضارة عابرة أو محلية أو ثانوية كغيرها من الحضارات، وليست محدودة الزمان والمكان فهي حضارة شاملة غيرت مجرى التاريخ وغيرت أسلوب حياة البشرية، فلها فضل كبير في إخراج البشرية من ظلام الجهل إلى نور العلم والهداية والتوحيد، ولكن الاهتمام بإحياء تراثها ودراستها من طرف المسلمين اليوم محدود جدا، فقد تعرضت للتهميش والتزوير من طرف الغربيين، مقابل تمجيد الحضارة الرومانية التي غلب عليها الإنتاج المادي دون الإنتاج الفكري والأخلاقي، وهي بعيدة عن المعاني الروحية والدينية التي تشبع بها الإسلام والحضارة الإسلامية، حيث تفوقت الحضارة الإسلامية في هذا المجال بامتياز. ومن أهم خصائص الحضارة العربية الإسلامية ما يلي:

- **العالمية والحيوية**: الحضارة الإسلامية عالمية حيث أن نزول الإسلام لم يكن يعني العرب وحدهم أو الجزيرة الحربية فحسب، بل نزل لهداية البشر أجمعين في كل مكان مهما اختلفت أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وألوانهم، قال تعالى: "وما أرسلناك إلا للناس كافة بشيرا ونذيرا"، فمنهج الإسلام كامل جامع للناس على

اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم دون تمييز أو استثناء، يشكل الإسلام تحولا حضاريا شاملا ينتقل بالناس من ضيق القوميات والأعراق والأجناس إلى الوحدة البشرية والمجتمع الإنساني الواحد، ويتضح ذلك أيضا في قوله تعالى: "يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ..." الأعراف 158. ويقول رسول الله الكريم صل الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب". لذلك امتدت الحضارة الإسلامية من أقصى الشرق لأقصى الغرب، وكانت على نهج واحد رغم اختلاف الشعوب التي شملتهم (العرب، الفرس، الصينيين، الإفريقيين، والأوربيين...). كما اتسمت الحضارة الإسلامية بالحيوية بفضل مبتكراتها وإبداعاتها الكبيرة، وكما يصفها المستشرقين بأنها من الحضارات الإنسانية المهمة، ومن أبرزهم غوستاف لوبون وهو يصف حيوية هذه الحضارة حيث قال: "وقد رأينا العرب ذوي أثر بالغ في تمدين الأمم التي خضعت لهم، وقد تحول بسرعة كل بلد خفقت فوقه راية الرسول صل الله عليه وسلم، فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أيما ازدهار". فقد تركت أثرها إلى يومنا هذا في كل مكان وصلت إليه، خاصة في الجوانب الروحية والأخلاقية، فهي قوية بقوة الإسلام وتعاليمه العالمية.

- **الشمول والمرونة**: مادامت حضارة دينية وربانية فهي بالتأكيد حضارة كاملة وشاملة وسامية للكون كله، شمول الألوهية والربوبية لكل موجود على ظهر الكون، وشمول العبودية فالكون كله عبد لله وحده لأنه الخالق الأوحد والقادر على كل شيء. وهي حضارة منفتحة الحدود ممتدة الأرجاء شاملة لكل مجالات الحياة في أسسها الفكرة والنفسية والمادية، ومنفتحة الحدود بالتحريض على الانطلاق إلى الأبعاد الإنسانية كلها تحمل إليها المحبة والرحمة وإرادة الخير والسعادة. كما أن الحضارة الإسلامية شاملة لأنها منفتحة على الحضارات الأخرى، فقد اقتبست من الحضارات التي سبقتها ومن الأمم الأخرى في الشرق والغرب،

من خلال عملية التأثير المتبادل والاستفادة من كل ذلك الإرث، مع توظيف العلم من أجل تطويره بواسطة الاستقصاء والابتكار والإبداع، فهي ليست حضارة مغلقة أو جامدة، واهتمت الحضارة الإسلامية من خلال شموليتها بتربية الفرد والمجتمع من والربط بين الدين والدولة. كما أنها حضارة مرنة ومتكيفة مع ظروف الزمان والمكان فهي حضارة إنسانية دائمة تشريعاتها صالحة لكل زمان ومكان، وليست جامدة أمام تحولات الحياة البشرية ومستجداتها.

- **حضارة إيمانية:** تقوم الحضارة العربية الإسلامية على كلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله الا الله، فرغم أنها كلمات موجزة جدا غير أنها تحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام وتفسر سر وجود الخلق وتعمير الأرض، فتعبر لوحدها عن حضارة كاملة تشمل العقيدة والنظم والسلوك والأخلاق، فكل ما في الإسلام من تنوع وغنى وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة يجتمع في هذه الجملة القصيرة، فالله في الإسلام هو الحقيقة ووحدانيته هي وحدانية مصادر الحقيقة الصادرة منه عن طريق رسله وأنبيائه. فالحضارة العربية الإسلامية حضارة دينية بامتياز فلا وجود للحضارة العربية خارج إطار الدين الإسلامي، فهي حضارة إيمان وعقيدة بالله ورسوله ورسالاته وأنبيائه السابقين جميعا، فهي تتمتع بسياج منيع من القيم الروحية والمثل الكريمة التي شرعت من السماء وليس من وحي البشر، وهي حضارة دين ومنطق وعقل لا تتناقض مع العقل السليم، ولكنها تتعارض مع الأهواء والأنفس الغير سوية.
- **الإنسانية والتسامح:** يتناغم معنى الإنسانية مع الحضارة العربية الإسلامية بفضل ما جاء به القرآن الكريم من قيم وتعاليم سامية للارتقاء بسلوك الإنسان، وكذا من خلال شهامة العرب وأخلاقهم الإنسانية الحميدة قبل مجيء الإسلام، فقد امتزجت كلها لتعطي الفرد الذي تأسست بموجبه الحضارة العربية الإسلامية، فكل معاني الإنسانية تجتمع في الحضارة الإسلامية وتتضح من خلال

الحديث الشريف الذي روي عن معاذ بن جبل أنه قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم: "أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء العهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الحياد، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحفظ الجناح". فالحضارة العربية الإسلامية حضارة الإنسانية والتسامح والأخوة والتعاون ونبذ العنف الصراع.

- **السلام:** تقوم الحضارة العربية الإسلامية أساسا على السلام وعدم الاعتداء، وكلمة إسلام مشتقة من الجذر سلم وهو أسلم الذي يعني خضع لله، وهي أصل كلمة مسلم. والإسلام معناه الانقياد فعندما بدأت الدعوة المحمدية انصرف معنى الكلمة إلى الانقياد لله وحده، وتحية الإسلام هي السلام فهي أول كلمة ينطقها المسلم في أي مكان وفي كل زمان، فهي فاتحة كلامه دائما تعبيرا على أنه مسالم يتعهد بالسلام لغيره ويطلب السلام منه أيضا، فهو يحدد علاقته بالآخر من خلال أول كلمة ينطقها مع كل الناس، فآيات الحرب قليلة جدا في القرآن وهي تعني دفع العدوان، في حين آيات السلم والسلام كثيرة جدا.